المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

مراجعات | 22 تشرين الثاني/ نوفمبر، 2023

حول سيرة المقاومة المسلحة ومسيرتها

قراءة في كتاب التجربة العسكرية الفلسطينية: ملاحظات في النظرية والأداء

نجلاء مكاوي

حول سيرة المقاومة المسلحة ومسيرتها، قراءة في كتاب التجربة العسكرية الفلسطينية

سلسلة: مراجعات

22 تشرين الثاني/ نوفمبر، 2023

نجلاء مكاوي

مؤرخة مصرية، وباحثة زائرة في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. حاصلة على الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر من جامعة المنصورة. عملت سابقًا في العديد من المؤسسات البحثية وقدّمت لها الدعم العلمي. صدرت لها عدة كتب، منها: «مشروع سورية الكبرى»، و«الحرب الباردة في أميركا اللاتينية»، والاستراتيجية الإيرانية في الخليج العربي»، و«التوظيف السياسي للدين والقانون في مشروع محمد علي»، و«اليسار الجديد في أمريكا اللاتينية»، إضافة إلى مشاركتها في تأليف كتب أخرى في تاريخ العرب الحديث ونشرها الكثير من الدراسات والمقالات العلمية.

جميع الحقوق محفوظة للمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات © 2023

المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السّياسات مؤسّسة بحثيّة عربيّة للعلوم الاجتماعيّة والعلوم الاجتماعيّة التطبيقيّة والتّاريخ الإقليميّ والقضايا الجيوستراتيجية. وإضافة إلى كونه مركز أبحاثٍ فهو يولي اهتمامًا لدراسة السّياسات ونقدها وتقديم البدائل، سواء كانت سياسات عربيّة أو سياسات دوليّة تجاه المنطقة العربيّة، وسواء كانت سياسات حكوميّة، أو سياسات مؤسّسات وأحزاب وهيئات.

يعالج المركز قضايا المجتمعات والدول العربيّة بأدوات العلوم الاجتماعيّة والاقتصاديّة والتاريخيّة، وبمقاربات ومنهجيّات تكامليّة عابرة للتّخصصات. وينطلق من افتراض وجود أمن قوميّ وإنسانيّ عربيّ، ومن وجود سماتٍ ومصالح مشتركة، وإمكانيّة تطوير اقتصاد عربيّ، ويعمل على صوغ هذه الخطط وتحقيقها، كما يطرحها كبرامجَ وخططٍ من خلال عمله البحثيّ ومجمل إنتاجه.

المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السّياسات

شارع الطرفة، منطقة 70

وادي البنات

ص. ب: 10277

الظعاين، قطـر

هاتف: 40354111 974 +

www.dohainstitute.org

المحتويات

مقدمة: في أهمية الكتاب وموضوعه 1

أولًا: انطلاقة الكفاح المسلح وسؤال "التوريط" 3

ثانيًا: مأزق "القاعدة الآمنة"/ "هانوي الفلسطينية" 4

ثالثًا: لهيب غزة: خصوصية التجربة العسكرية في القطاع 8

رابعًا: الأداء العسكري الفلسطيني: تقييم عام 10

المراجع 13

المؤلف: نافذ أبو حسنة.

عنوان الكتاب: التجربة العسكرية الفلسطينية: ملاحظات في النظرية والأداء.

الناشر: مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

سنة النشر: 2022.

عدد الصفحات: 302.

مقدمة: في أهمية الكتاب وموضوعه

في كل انطلاقة لجولة جديدة من جولات الصراع مع العدو الصهيوني، يُعلن الفلسطيني عن وجوده ورفضه ومقاومته، متوسلًا كل أداة، بما فيها السلاح، مبتغيًا تحرير أرضه المستلبة ومجابهة استلاب إنسانيته؛ ما يثبت أن الصراع لا يزال على أشده، وأن الفلسطيني لم تلن قناته في سبيل هدفه. ومع اشتعال نيران المواجهة - كما هو الحال اليوم، والاحتلال الإسرائيلي يشن حرب إبادة على غزة، ويتهم، وغيره، المقاومة الفلسطينية بـ "الإرهاب" - يشتعل مجددًا الجدل حول استخدام القوة لتحرير الأرض والذات ومواجهة العدوان. تدور الأسئلة في الأساس حول تأثيرات المقاومة المسلحة في الصراع وأولويتها دون غيرها وجدواها، وهي أسئلة مشروعة. وحتى نعثر لكثير منها على إجابات، علينا استحضار تجربة الكفاح الفلسطيني المسلح، عبر تاريخها الممتد وليس القريب فحسب، فهذا الكفاح شغل حيزًا كبيرًا في مسيرة الحركة الوطنية الفلسطينية، وترك انعكاسات مهمة على مسار معركة تحرير فلسطين ومآلها الراهن، وهو يساعدنا في التقويم والمراجعة لكل محطات التجربة الرئيسة والمفصلية، وكل ما تختزنه من وقائع وتفسيرات وجدالات؛ وهذا ما يقاربه كتاب **التجربة العسكرية الفلسطينية: ملاحظات في النظرية والأداء** للكاتب والإعلامي الفلسطيني الراحل نافذ أبو حسنة[1]، الذي نقدم مراجعة له في هذه الورقة.

يبدو لنا أهمية أن نقرأ المسيرة التاريخية، لنرى كيف أننا اليوم في لحظة فارقة، قامت المقاومة بترسيمها بالعملية النوعية التي نفذتها في السابع من تشرين الأول/ أكتوبر 2023؛ إذ تجاوزت خلالها الكثير من العقبات وأوجه القصور والمعوقات التاريخية، استراتيجيًا وتكتيكيًا، فأجبرت الجميع على إعادة الحسابات، ودفعت بالقضية الفلسطينية إلى صدارة الاهتمام العالمي، وإلى مركزيتها بين قضايا العرب.

"هل يحتمل الجسد المُجرّح مزيدًا من الآلام؟" هذا هو السؤال الأول الذي طالما يُطرح عند الحديث عن قراءة التجربة العسكرية الفلسطينية قراءة نقدية تاريخية، ويخشاه كل مَن أراد التصدي لهذه القراءة، خاصة أنه يليه سؤال حول الهدف من مراجعة أداء المقاومة الفلسطينية المسلحة. ومع ذلك قدم بعضهم إجابات عن تلك الأسئلة وغيرها، بوضع التجربة على بساط البحث، بكل العناصر المكونة لها، وبما حملته من سمات خاصة ناجمة عن خصوصية الواقع الفلسطيني، طبوغرافيًا وديموغرافيًا، وطبيعة محيطه العربي، وقبل ذلك طبيعة العدو وإمكاناته. وعمومًا، فإن حركة المقاومة الفلسطينية تعرضت، وما زالت، لنقد قاسٍ ومتواصل لأسباب متعددة وبمنطلقات مختلفة، سواء أكان الهدف الحرص عليها أم لا.

انشغل أبو حسنة بأسئلة التقييم وكذلك بإجاباتها، لكنه رأى أن ما قُدم كانت إجابات قاصرة ولا تشفي الغليل، وأنه على الرغم من استحضار الكثير من الوقائع والتجارب التي انطوت على تضحيات هائلة وبطولات عظيمة، فلم تكن ثمة استفادة من عبرها، ولم يقد النقد إلى أي نوع من المراجعة التي يترتب عليها شق مسارات

1 توفي الكاتب – رحمه الله - في 2020/8/10، قبل نشر كتابه. وكان الكتاب مشروعًا عمل عليه صاحبه سنوات كثيرة، وأكمله قبل وفاته.

جديدة، أو التخلص من الأخطاء والعيوب، وحتى العثرات التي كان من الممكن تلافيها بيسر أو بصعوبة، إضافة إلى الافتقار إلى التنظير الخاص، مع النظر إلى أن القصد ليس تأريخ التجربة ولا الحكم النهائي عليها، لكونها ما زالت مستمرة.

من هذا المنطلق اجتهد الكاتب في أن يقدم مراجعة نقدية تاريخية للمقاومة المسلحة[2]، متجاوزًا اللوم وأسئلة الجدوى المعوقة، ومتسلحًا بنبل الأهداف وإجابات الجدوى الممكنة. فإن كان الهدف الأكبر هو التحرير، فمن أجله يتعين أن يكون هدف المقاومة ليس تقديم الشهداء والتضحيات وحسب، بل أن تتقدم نحو الأهداف التي سقط الشهداء من أجلها، حتى لا تظل الحالة الفلسطينية وحيدة ومتفردة في قياس حجم الإنجاز بحجم التضحيات؛ إذ على الرغم من أن دماء عشرات الألوف من الشهداء قد شقت دروبًا مستحيلة، فإن الإنجازات كانت أقل كثيرًا من حجم التضحيات. في سبيل ذلك يتعين الوقوف أمام المسيرة كاملة، بإخفاقاتها قبل إشراقاتها، والإقرار بالحقائق، وتعيين مواضع الخطأ والإصابة، عبر تحليل الأداء العسكري الفلسطيني.

تكمن أهمية هذا الكتاب في هدفه؛ لكونه محاولة نقد ذاتية، هدفها الأسمى هو التحرير، عن طريق ترشيد النضال والإفادة من كل ما مر به، و"كل" هذه تعني زمنًا طويلًا من عمر التجربة، فالكتاب يتميز من غيره بطول الفترة الزمنية التي تناولها؛ إذ امتدت من بدايات القرن العشرين وصولًا إلى عام 2005. كما يتميز بمصادر معلوماته، فالعثور على وثائق وأدبيات تخص تجربة بذلك الحجم والعمر لهو من صعاب الأمور، لكن الكاتب اجتهد للوصول إلى المعلومات، وقام جزء كبير من مصادره على شهادات شفوية مهمة ومتنوعة؛ إذ استنطق، في لقاءات خاصة، كثيرًا من القادة العسكريين والسياسيين والمؤرخين الفلسطينيين[3]، وتحرّى الموضوعية في عرض مختلف وجهات النظر والمقارنة بينها، ووافق على بعضها ودحض بعضها الآخر.

استندت انطلاقة الثورة الفلسطينية المعاصرة إلى إرث طويل وتجربة ثرية، فقد عقد الكاتب فصله الأول للوقوف على "الإرث الجهادي الفلسطيني" منذ بواكيره الأولى، راجعًا إلى البداية البعيدة زمنيًا لمجاهدة الفلسطينيين، بالقوة، لمن غزوا أرضهم في عام 1877. ثم مر على كثير من الحوادث والوقائع والانتفاضات وصولًا إلى مرحلة الثورة الفلسطينية الكبرى (1936-1939)، فمرحلة ما بعد التقسيم (تشرين الثاني/ نوفمبر 1947) وحتى نهاية عام 1948. أما الفصل الثاني فقد خصصه لانطلاقة الكفاح الفلسطيني المسلح الأول في عام 1965 وما صحبها من جدالات نظرية عسكرية وسياسية، ثم الانطلاقة الثانية بعد عدوان عام 1967، ومسألة القتال من الداخل والخارج. أما "بين أيلولين" (أيلول/ سبتمبر 1970 وأيلول/ سبتمبر 1982) فهو عنوان الفصل الثالث، الذي ناقش فيه الكاتب بعمق ما عاشته المقاومة الفلسطينية من نجاحات وخيبات، وما سجلت من منجزات واعترى ممارساتها من أخطاء، في الأردن ولبنان، ما انتهى بخروجها من البلدين. بعد ذلك انتقل الكاتب إلى مقاربة تجربة نضالية مميزة عما سبقها من تجارب فلسطينية وعربية وعالمية في خوض الكفاح ضد المحتل، وهي الانتفاضة. وتناول الانتفاضة الأولى (1987) وانتفاضة الأقصى (2000)، من حيث أدوات الكفاح اليومي وأشكاله والتكتيكات والأسلحة والتأثيرات في العدو، وغيره، وتناول العمليات الاستشهادية بوصفها حلقة الوصل بين الانتفاضتين. ثم جمع ما استخلصه من ملاحظات إجمالية على الأداء العسكري الفلسطيني طوال فترة بحثه.

---

2 ثمة ندرة في الكتابات التأريخية أو التنظيرية أو النقدية عن مسيرة الكفاح العسكري الفلسطيني، في حين يطغى على بعض ما كُتب طابع الأسطرة والمبالغة أو العدمية وجلد الذات. ويلاحظ قلة معالجة التجربة الفلسطينية بذاتها ووفق خصوصياتها ومعطياتها وظروفها الخاصة، وليس قياسًا على تجارب عربية وعالمية أخرى ووفق منطوقها. ولعل من أبرز الكتابات في هذا الشأن: يزيد صايغ، "التجربة العسكرية الفلسطينية المعاصرة"، في: **الموسوعة الفلسطينية**، ج 5 (دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية، 1984–1996)؛ الهيثم الأيوبي، "عشرة أعوام من عمر الكفاح المسلح الفلسطيني"، **شؤون فلسطينية**، العددان 41 - 42 ([كانون الثاني]/ يناير–[شباط]/ فبراير 1975)؛ **التجربة العسكرية الفلسطينية: مراجعة نقدية لمسيرة التحرير الفلسطينية 1964 - 1994، مائدة مستديرة** (بيروت: لجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية الفلسطينية، 1994)؛ ماجد الكيالي، **نقاش السلاح: قراءة في إشكاليات التجربة العسكرية الفلسطينية** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2012).

3 أبرزهم: اللواء كمال ناجي، وأحمد جبريل، وصخر حبش، ونايف حواتمة، ومحمود الخالدي، وسليم الزعنون، والعقيد أبو موسى، وأسامة النقيب، وأبو أحمد فؤاد، وعبد القادر ياسين، ومحسن صالح، وبهجت أبو غربية، وسميح شبيب، ونقولا زيادة، وناجي علوش، وبيان نويهض، وعبد السلام العجيلي، وشفيق الحوت، وخالد مشعل، ورمضان عبد الله، وغيرهم. كما اعتمد الكاتب على شهادات مجموعة أخرى منشورة في: عبد القادر ياسين وسميح شبيب وماجد الكيالي، "الكفاح المسلح الفلسطيني: التجربة والمحدودات (ندوة)"، **شؤون فلسطينية**، العددان 244–245 (تموز/ يوليو–آب/ أغسطس 1993).

تتبع الكاتب كل مرحلة وتناولها بنظرة فاحصة لمجرياتها وسياقاتها، وأوضح السمات البارزة للأداء القتالي، وأشكال العمل العسكري، ومدى توافقها مع قدرات الفلسطينيين وواقع الاحتلال وطبيعة الأرض والسكان، وتوافقها أيضًا مع الحسابات السياسية والميدانية، فوقف عند نتائج كل مرحلة ليوضح مشاكلها وأخطاءها، ويشخص نقاط الضعف قبل القوة، ليس للمقاومة وحدها بل للعدو أيضًا. ووضع يده على الكيفية التي خرجت بها التجربة من مرحلة إلى أخرى، وماذا حمل رجال المقاومة من خبرات ودروس وهم ينتقلون من طور إلى آخر. وفي كل ذلك يحضر الحديث شديد الدقة عن السلاح، فالكاتب تناول المقاومة بأدواتها المختلفة، من الحجر والزجاجة الحارقة والسكين وصولًا إلى الصاروخ والعمل الاستشهادي والاشتباك والاقتحام بالكمين وغيرها، إضافة إلى آليات التدريب والتسليح. ولكونه معنيًّا بالنظرية، فقد تتبع الأساس النظري الذي اعتمدته المقاومة المسلحة أو التنظيمات والجماعات الفلسطينية العاملة في كل فترة، والإشكاليات المتعلقة بالفجوة بين النظرية والممارسة.

سنحاول أن نلتقط من كل ذلك بعض النقاط، التي تشكل نموذجًا لما حدث في كثير من القضايا التي ناقشها الكاتب، ويمكن من خلالها تقديم قراءة للعمل والاشتباك مع ما طرحه من الأسئلة والإشكاليات.

أولًا: انطلاقة الكفاح المسلح وسؤال "التوريط"

لأن النضال المسلح الفلسطيني لم يبدأ من عام 1965، الذي شهد مطلعه انطلاق الثورة الفلسطينية على يد حركة التحرير الوطني الفلسطيني "فتح"، بل امتد لعقود سابقة ومسيرة طويلة من المقاومة، فقد عد الكاتب انطلاقة عام 1965 "جولة أخرى"، سبقتها جولات عدة، كان من أهمها المعركة الدامية والطويلة 1947 - 1948، التي تعدّ الأطول في تاريخ الصراع، وخلالها مر على النكبة، ودخول الجيوش العربية فلسطين، وحالة تسليحها، وحجم القوات العربية والصهيونية، والخلافات والتنازعات بين الأنظمة العربية التي حكمت دخولها الحرب، وكل ما انتهى بنكبة فلسطين باحتلال معظم أراضيها وتشريد مليون من أبنائها[4]، ودخول المقاومة فترة جزر، ثم ما بين مد وجزر، حتى أتت الانطلاقة التاريخية.

في الإحاطة بعملية انطلاق الكفاح المسلح مع مطلع عام 1965 وسياقاتها، ركز الكاتب على افتقار العمل العسكري الذي بدأت به "فتح" المعركة إلى الإعداد الملائم ودراسة الاحتمالات بصورة كافية، والتأكيد على أنه جاء ردَّ فعل على معطيات سياسية. وفي تفسير ذلك واستدلالًا عليه، يستحضر النقاش أهم مقولة اعتمدتها "فتح" آنذاك، وشكلت عنوان تصورها لطبيعة المعركة وأهدافها ومآلها وأساس منهجها، ألا وهي "التوريط". توريط الأنظمة العربية؛ بمعنى جرها إلى معركة قومية ضد دولة الاحتلال بالقوة أو توجيه ضربات للعدو لدفعه لتحريك الصراع على الجبهات العربية؛ أي عملية استدراج للطرفين، العربي والصهيوني، عبر العمل الفدائي. وما كان وراء قناعة "فتح" بضرورة استعادة الصراع وجهه العربي و"قومنته" مرة أخرى، أن ثمة تخلخلًا قد أصابه؛ إذ انعكس فشل الوحدة المصرية – السورية (خريف 1961) سلبيًا على مبدأ "الوحدة طريق التحرير"، خاصة أن جمال عبد الناصر، وبعده بعض القادة العرب، أكد للفلسطينيين أنه لا يملك مشروعًا للتحرير، وحثهم على امتلاك زمام قضيتهم وأخذها بين أيديهم. وثمة من ظل يرى أولوية تحقيق الوحدة العربية لتحرير فلسطين، بينما "فتح" وكثير من المنظمات الفدائية التي نشأت آنذاك رأت أن التحرير أولوية

---

4 على الرغم من أن الكاتب أورد معلومات مهمة في شأن حرب 1948، فلم يقف كثيرًا عند التفاصيل العسكرية المحيطة بالنكبة وتفسيرها، ومن جهة كل الأطراف، بمن فيهم الفلسطينيون، لمحاولة تقديم إجابات جديدة عن أسئلة قديمة - جديدة. فأسئلة النكبة لم يتجاوزها التاريخ بعد، وفي هذا يمكننا الرجوع إلى عزمي بشارة الذي ذكر أن النكبة "حولت التاريخ العربي كما حولت تاريخ العربي عن مساره"، وطرح أسئلة تحتاج إلى دراسة تفصيلية؛ إذ يرى أن أهم تلك الأسئلة ليس سؤال "لماذا؟"؛ أي "لماذا وقعت النكبة؟" لكونه سؤالًا تاريخيًا لا إجابة شافية عنه، ومن الأفضل أن يبقى سؤالًا فلسفيًا وأخلاقيًا، في حين أن الأفضل التركيز على أسئلة مثل: ماذا حصل؟ وماذا علينا أن نفعل؟ وكيف نتقدم نحو الهدف المحدد؟ ينظر: عزمي بشارة، **أن تكون عربيًا في أيامنا** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2009)، ص 137، 142.

تليها الوحدة. فأصبحنا أمام مسارين، شقت "فتح" أحدهما بالسلاح مطلقة الثورة، أما الآخر ففي قناته تشكلت "منظمة التحرير الفلسطينية" برعاية عبد الناصر، بوصفها الكيان الفلسطيني والإطار الذي سيدير شؤون الفلسطينيين على يد النظام العربي الرسمي (ص 73 - 74، 79).

قاد جدل الوحدة والتحرير إلى مفهوم "التوريط"، والأخير يطرح ويشتبك مع أسئلة كثيرة مهمة، تتعلق بإطلاق الكفاح المسلح ومساره ومآله بما أننا بصدد تاريخ انطلاقه. أسئلة تبدأ مع بداية هذه المرحلة، مرحلة الانطلاقة الأولى أو "الجنينية"، وتتعلق بأسباب انطلاقها وصحة توقيته من عدمه، وتنتهي بنهايتها التي وضعها عدوان الخامس من حزيران/ يونيو 1967، وتتعلق بنتائجها التي قد يكون أهمها شن ذلك العدوان.

حاول المؤلف تقديم إجابات وتفسيرات، منها أن الانطلاقة كانت سياسية بالأساس، ولم تستهدف إخراج عمل عسكري يصعق الإسرائيليين، فالفلسطينيون يثبتون لهم أنهم موجودون ويمتلكون إرادة الصراع ويسعون إلى تدعيمها على نحو مستقل عن الأنظمة العربية. وكان التعجيل لاعتبارات سياسية، وهذا كان وراء عدم نضوج الإعداد العسكري، والمقصود بالإعداد هنا هو الإعداد لحرب عصابات، وليس بمعنى العمل التنظيمي.

انطلق النشاط العسكري استنادًا إلى مفهوم التوريط ومنهجه ومع عدم وجود بنى مكتملة؛ ما جعله يتسم بفاعلية محدودة حاول الكاتب - الذي أبدى عدم اقتناعه بمسوغات توقيته بدون إعداد كافٍ - أن يدلل عليها بعرض تفاصيل العمليات التي انطلقت من الدول العربية المجاورة (سورية والأردن ولبنان) ومن المنطقة الوسطى من فلسطين، ومردود تلك العمليات[5] ومدى أثرها في الاحتلال (ص 80-84). ومع ما شكلته من تهديد للعدو وتكبيده خسائر كبيرة، فقد رد الأخير بعمليات انتقامية واسعة بغية ردع الفدائيين والحكومات العربية المضيفة، فتصاعدت حدة الاشتباكات؛ ما وتّر جبهات الصراع معه، خاصة السورية، إلى أن انتهى الأمر بتحرك الواقع العربي التي أرادت "فتح" أن تحركه من خلال توريطه، إثر عدوان حزيران/ يونيو 1967. وهنا حاول الكاتب الربط بين النشاط العسكري الفلسطيني والعدوان، بطرحه سؤالًا: هل تحقق هدف التوريط؟ وعلى الرغم من أنه يعرض وجهة النظر التي تقول إن تورط العرب في الحرب لم يأتِ بسبب الفلسطينيين، فهي دهمتهم كما دهمت العرب الآخرين، فإنه يميل إلى أهمية الوقوف عند مشكلات العمل الفلسطيني المسلح في تلك المرحلة، وفي مقدمتها عدم الإعداد الكافي والانطلاقة المتعجلة، وغياب دراسة وافية لكل الاحتمالات، والاشتباك بين كل ذلك وبين عدوان 1967 ونتائجه، الذي بانتهائه أضحت فلسطين كاملة تحت الاحتلال، واحتُلت سيناء المصرية والجولان السوري؛ ما يعني تحولًا جذريًا وكبيرًا في معطيات الصراع (ص 84-87). ولعل سؤال الهزيمة على جانب كبير من الأهمية، لا يزال يحتفظ بمكانته في أسئلة الواقع العربي الرئيسة عمومًا، والقضية الفلسطينية خصوصًا.

ثانيًا: مأزق "القاعدة الآمنة"/ "هانوي الفلسطينية"

على الرغم من تعرض الثورة الفلسطينية في مرحلتها الجنينية لزلزال عنيف بالعدوان والواقع الذي أنتجه، لكن بقيت إرادة القتال قائمة، بل إن الكفاح المسلح تصاعد وتطور بقوة وسرعة لافتة حتى إن السنوات التالية (1967–1970) عُدت "العصر الذهبي" للمقاومة الفلسطينية المسلحة. قسّم الكاتب هذا العصر إلى مراحل ثلاث، كان أهم ما فيها هو الحديث عن القواعد الآمنة والارتكازية.

في العمل الثوري التحرري، يتعين أن يكون للثوار "قواعد آمنة"، وهي نظريًا تُعرف بأنها منطقة محررة يعلنها الثوار في إقليم معين، بعد القضاء على كل أشكال السلطة والإدارة المعادية وإقامة الإدارة الثورية عليها، وفي هذه المنطقة الآمنة يقيم الثوار "قواعد ارتكاز" تبنى فيها القوة الرئيسة للثورة عسكريًا واقتصاديًا

5 تمثلت في قيام دوريات صغيرة انطلقت من الدول العربية المجاورة، ونفذت عمليات وزرع الألغام ونصب الكمائن الصغيرة داخل الأراضي المحتلة عام 1948.

واجتماعيًا، وتضم مراكز قيادتها وأجهزتها وتقام فيها السلطة الشعبية بمعظم مرتكزاتها، ومنها تنطلق الثورة وتمارس كفاحها المسلح والمدني. فما من ثورة تتقدم من مرحلة إلى أخرى من دون امتلاك الثوار "قاعدة آمنة" ومن ثم تطويرها إلى "قاعدة ارتكازية". والمقصود هنا، باختصار، القواعد التي انطلق منها الفدائيون الفلسطينيون للقيام بعمليات عسكرية في الأرض المحتلة في سبيل التحرير.

تندرج المصطلحات المذكورة ضمن قواعد ما يسمى "حرب التحرير الشعبية"[6]، تلك التي طرحت استراتيجيتها قوى الثورة والمقاومة الفلسطينية وشكلت خيارها العسكري، وعلى أساس اعتماد بعض أساليبها وتكتيكاتها القتالية، وعلى رأسها حرب العصابات والتخريب الشعبي لاستنزاف طاقات العدو حتى الإرهاق والتفكك الكاملين، وبوصفها أنجع الأساليب لمواجهته. لكن الممارسة أظهرت أنه لم يكن ثمة التزام بالقوانين العامة الحاكمة لحرب التحرير الشعبية طويلة الأمد، استنادًا إلى أن التجربة الفلسطينية لها سماتها وقوانينها الخاصة، ونظرًا إلى فرادة ظروفها الذاتية والموضوعية. ومع ذلك، لم تفرز التجربة تنظيرًا عسكريًا خاصًا بها يمكنه أن يكون الأساس لمدرسة عسكرية فلسطينية، وكثيرًا ما حادت الممارسات عن سمات الواقع ومعطياته الخاصة، وأحيانًا فارقت ذلك الواقع مفارقة تامة. يناقش الكاتب كل ذلك من خلال الوقوف عند النقاط المفصلية في مسيرة الكفاح المسلح بعد هزيمة عام 1967، واضعًا يده على مكامن الخلل في تطبيق استراتيجية الحرب الشعبية وتكتيكاتها، والعوامل التي كان يجب إيلاؤها الأهمية، وعلى رأسها معرفة طبيعة العدو وإمكاناته ونقاط تفوقه العسكرية، ومعرفة الطبيعة الجيوسياسية للأرض التي تنطلق منها المقاومة.

وردًا على الهزيمة حاولت التنظيمات الفدائية خلق حالة جماهيرية مسلحة في داخل الأرض الفلسطينية المحتلة حديثًا تؤدي إلى طرد القوات الإسرائيلية، مستحضرة تجربة ثورة 1936، ومستندة إلى ميراثها من العمل العسكري. وعلى ذلك، جرى دفع الكوادر والمقاتلين، وحاولت تنظيمات المقاومة بناء قواعد فدائية داخل الأراضي المحتلة، لتكون هذه القواعد هي العنصر المحرك والمنفذ لكل أوجه النشاط العسكري من تدريب وتخطيط واستطلاع وقتال، فيترتب عليها استقطاب جميع الطاقات البشرية المهيئة للقتال جسديًا ومعنويًا. وهنا وضع الكاتب يده على كثير من التشوش المفاهيمي فيما يتعلق بطبيعة تلك القواعد ومكان تموضعها والمهمات التي أنيطت بها. ففي الأدبيات العسكرية الفلسطينية سميت "قواعد ارتكازية"، أو "بؤر ثورية" (ص 91-95)، وهذه وتلك لا تنطبق على واقع الحال آنذاك، وتعكس السعي إلى الاستنساخ في التسميات والمفاهيم بغض النظر عن الوقائع القائمة، كما أن هذا التشوش وعدم وضوح الرؤية كانا من أسباب فشل التجربة داخل الأراضي المحتلة؛ ما يعكس عدم الإلمام بحقائق الواقع وكيفيات التعامل معه. في المقابل، صنفها الكاتب بأنها أقرب إلى "الدوريات المطاردة"، استنادًا إلى مواصفات الممارسة العملية وأهمها تكثيف النشاط المسلح عبر استهداف المنشآت الاقتصادية والعسكرية للعدو، ودفع الرجال والسلاح إلى داخل الضفة والقطاع، والقيام بعمل تنظيمي واسع، ولكنه غير متين وغير ملتزم بضوابط السرية، بدليل حجم الضربات التي تعرض لها. إجمالًا، اتسمت الممارسات بالاندفاع العفوي والتسرع وغياب الاستراتيجية الواضحة التي تستطيع تنظيم القوى وتوجيهها الوجهة الصحيحة بالاستفادة من الاندفاع والحماسة الشديدين (ص 95–96).

العامل الأهم، والذي لا يخص تلك المرحلة فحسب بل غيرها أيضًا، هو عامل الجغرافيا؛ جغرافية فلسطين، تلك التي تحدثت كتابات تنظيرية عسكرية قبل حرب حزيران/ يونيو 1967 عن ضرورة دراستها دراسة تفصيلية بسهولها وجبالها ومواقع مدنها، وحتمية ذلك في الحرب مع العدو لاستردادها. لكن العمل من الداخل في مرحلة ما بعد الحرب لم يُراعَ فيه عدم ملاءمة جغرافيا الضفة الغربية وقطاع غزة لبناء القواعد لجهة التكوين

6 للتفاصيل على المستويين النظري والعملي، يُنظر: معين أحمد محمود، **العمل الفدائي ومراحل حرب التحرير الشعبية** (بيروت: منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، 1969).

التضاريسي؛ إذ إن مساحة فلسطين وتضاريسها وطبيعة العدو الاستيطاني الإجلائي وجبروته العسكري، كل ذلك غير ملائم لحرب العصابات، حيث التمركز في الجبل والأرياف، فلا أرياف شاسعة ولا جبال شاهقة مغطاة بالغابات. ومثلما لم تدُرس الجغرافيا جيدًا، غابت الاستراتيجية الواضحة؛ إذ لم تراعَ طبيعة سلوك العدو وقدرته على تطوير أدواته، بحيث أفقد "الدوريات المطاردة" أحد أهم عوامل نجاحها، وهي القدرة على امتلاك عامل المبادأة ووضعها في موقع الدفاع عن النفس. أضف إلى ذلك عدم دراية العناصر والكوادر العسكرية بطبيعة المنطقة الطبوغرافية التي أُرسلوا إليها والاغتراب عن سكانه؛ لذلك بعد ممارستها العمل المسلح كُشفت واستطاع العدو ضربها. هذه وغيرها من العوامل حالت دون تطور "الدوريات المطاردة"، ونجاحها في تحقيق أهدافها، وإخفاق تجربة العمل من الداخل، أو بالأحرى بناء "قاعدة ارتكازية" على الأرض الفلسطينية في الضفة والقطاع؛ ما دفع المقاومة إلى مرحلة جديدة وطويلة، قامت على العمل من الخارج، والسعي لبناء "القاعدة الآمنة" خارج الأرض المحتلة، و"تصور" امتلاكها (ص 96–101).

في تلك المرحلة التي انتهت في عام 1970، والتي اجتهد المؤلف في فحص وقائعها ووضعها تحت مجهر التمحيص والنقد، تستوقفنا نقطتان رئيستان؛ الأولى حدثية؛ أي تتعلق بحادثة معينة، ألا وهي "معركة الكرامة"؛ والثانية مفاهيمية عكست نفسها في الممارسة، وهي التعارض بين منطقَي الثورة والدولة.

وقع اختيار المقاومة على منطقة غور نهر الأردن لإقامة القواعد الفلسطينية على أن تكون الأغوار منطقة العمل العلني (القاعدة الآمنة)، والضفة الغربية ساحة قتال. وانتشرت القواعد العلنية بعد اتخاذ القرار على طول الضفة الشرقية لغور الأردن، وكان لكل منظمة قواعدها ومعسكراتها، وقد واجهت القواعد العسكرية الصغيرة المنتشرة على الضفة الشرقية لنهر الأردن تحديات أمنية متعددة، فلم تكن هناك تكتلات عسكرية كبيرة استنادًا إلى أسس حرب العصابات، في حين لم يكن الملك حسين بن طلال موافقًا على وجود هذه القواعد. عمومًا اتفقت المقاومة على ثلاثة تجمعات كبرى تشكل مع القواعد الأخرى المنتشرة على طول نهر الأردن نقاط انطلاق للفدائيين لتنفيذ عمليات عسكرية داخل الأرض المحتلة، كما استخدمت هذه القواعد في عمليات قصف يومي للمستوطنات والمواقع الصهيونية على امتداد الضفة الغربية لنهر الأردن؛ وهذا كله ضمن فلسفة إنشاء "القاعدة الآمنة". وكانت أهم القواعد، وأكبر نقطة تجمع للفدائيين ونقطة الانطلاق الرئيسة في بلدة ومخيم "الكرامة".

من "الكرامة" نفذت المقاومة عمليات مهمة وذات أثر بالغ في العدو، كما استنهضت الحالة الجماهيرية، وذلك عبر ممارسة أسلوب عمليات القشرة، عكس عمليات العمق؛ ما أدى إلى استقطاب ردود فعل عسكرية إسرائيلية عنيفة تمثلت في القصف المدفعي والجوي للقواعد، واختراق الحدود العربية لمطاردة الدوريات عند عودتها من مهماتها إلى قواعدها الخارجية، فضلًا عن قصف التجمعات السكانية وراء الحدود لتنشيط الردع. وبعد فترة من تصاعد النشاط الفدائي ورد العدو، قرر الأخير ساعة الصفر، والعدوان على "الكرامة" (21 آذار/ مارس 1968). وفي تعارض مع تكتيك حرب العصابات، التي لا يواجه رجالها، بل يضربون ويهربون "عندما يتقدم العدو نتراجع"، قررت "فتح" مواجهة العدوان الصهيوني. وكان الهدف من قرار الصمود والمواجهة معنويًا ونفسيًا في المقام الأول لتحطيم الفكرة السائدة عن جبروت الجندي الإسرائيلي وكفاءته، وقلب المعايير التي كانت سائدة عقب حزيران/ يونيو 1967 عن مقاتل عربي لا يحسن سوى الهزيمة والتراجع والانسحاب غير المنظم، أضف إلى ذلك توثيق الارتباط مع الجماهير والجيش الأردني، ودعم ثقة الفدائيين بأنفسهم.

عُدّت معركة "الكرامة" نصرًا حاسمًا للمقاومة، جعل أي محاولة للتقييم أو التقويم انتقاصًا من النصر. وبتلك المعركة ونتائجها وصداها الكبير بين الجماهير العربية، دخلت المقاومة مرحلة جديدة، من دون التوقف عند

سؤال: "هل كانت الكرامة فعلاً قاعدة آمنة؟"[7]. ولأن التيقن من أنها "قاعدة آمنة" فعلاً سيطر على عقل القيادة الفلسطينية آنذاك، وكذلك أهمية المواجهات من ذلك النوع، فقد أعقبها انتشار واسع للقواعد الفدائية على ضفة الأردن الشرقية، وتمددت لاحقًا إلى لبنان وسورية بنسبة أقل، مستفيدة من المناخات التي ولدتها نتائج المعركة. يرى المؤلف أن "الكرامة" لم تكن "أكثر من قاعدة ارتكاز وانطلاق غير آمنة، حقيقةً، بسبب تعرضها الدائم للقصف وغارات الطيران المعادي، وكذا هي حال القواعد الأخرى، ولكن كان هناك من اعتبر أن نتائج 'الكرامة' أنجزت 'القاعدة الآمنة' وفتحت الطريق أمام بناء 'القواعد الارتكازية' مجددًا في الضفة وغزة، في حين لم يتم البناء جديًا على كل تلك التضحيات العظيمة والبطولات التي تدفع إلى الفخر، فبعد وقت قصير نسبيًا قاد البحث عن 'قاعدة آمنة' فعلية إلى تصادم مع نظم عربية رأت في المقاومة وكلفتها تهديدًا لها، فضلاً عن إيجاد 'هانوي' العربية المفقودة" (ص 113). وهذا يأخذنا إلى النقطة الثانية: تعارض منطقَي الثورة والدولة.

تولدت لدى المقاومة موثوقية بتحقيق "القاعدة الآمنة" التي بالضرورة يتعين أن تكون علنية؛ فالعلنية شرط أساسي لامتلاك القوى العسكرية الكبيرة اللازمة لسحق العدو. وهي في ذلك اعتمدت نموذجًا نظريًا زاغت به عن حقائق الواقع، وفي مقدمتها أن أيًا من الدول العربية المحيطة بفلسطين لم (ولن) تقبل بمعادلة "هانوي - فيتنام الجنوبية"؛ أي أن تكون عاصمتها هانوي الثورة الفلسطينية، وتؤدي دور نظام هانوي الثوري في الثورة الفيتنامية لجهة بناء القوى البشرية المسلحة من أجل خوض حرب التحرير الشعبية. ولم تضع المقاومة الوضع العربي في الحسبان، فقد انطلق الفدائيون من "دول متشكلة" ترى تعارضًا شديدًا بين منطقي "الدولة" و"الثورة" في أحسن الحالات، وتشكل "بيئة طاردة" للمقاومة في أسوأ الحالات. في الحالة الأولى، يبقى العمل مقيدًا وخاضعًا لاعتبارات تكتيكية واستراتيجية، وفي الثانية سوف يقود تشكيل بيئة الطرد إلى "صدام مسلح"، وهذا ما حدث مرارًا. وقد أدرك العدو هذه الحقائق منذ البداية، فنفذ أعمالاً انتقامية مستغلاً تفوقه العسكري، ليحول الفدائيين إلى مجموعات هائمة على وجوهها، في ظل عدم وجود قرار عربي بتحويل إحدى العواصم العربية إلى "هانوي" (ص 90-91).

دخل العمل الفدائي في مرحلة ما بعد "الكرامة" في مرحلة مد كبير، لكن تطوره وفاعليته لم يخفيا مأزقًا في الوقت نفسه، فالتمركز خارج الأرض المحتلة لم يوازه تدعيم العمل في الداخل بالقدر نفسه، وللتمركز في الخارج محاذيره الكثيرة، فليس في هذا الخارج من يريد أن يحول عاصمته إلى "هانوي"، لعدم الوصول إلى نقطة التعارض القصوى بين منطقي الدولة والثورة[8]. ومن جانب آخر، فإن السير وفق مقتضيات حرب التحرير الشعبية من بحث عن قاعده آمنة، إلى إيجاد الحاضنة الشعبية، وتجييش الجماهير، وخلق وحدات الأنصار ... إلخ، قاد إلى صدام مع السلطات العربية، وهو ما حصل في لبنان والأردن (ص 119).

دارت نقاشات في أوساط المقاومة حول كيفية التعامل مع هذا المأزق، وبرزت عدة وجهات نظر، منها ما يدعو إلى التراجع إلى الجبال والتهدئة حتى يتم إعداد الكوادر وتخزين السلاح في الداخل لإطلاق ثورة شعبية شاملة داخل فلسطين، وعدم الاعتماد على عمليات القصف من الخارج. وثمة اتجاه أراد إيجاد "هانوي" بالقوة وخصوصًا في الأردن، بإطلاقه شعار "كل السلطة للمقاومة"، وقام بعمليات تسليح وتدريب في المخيمات،

---

7 من أبرز الكتابات عن معركة الكرامة ودورها في الحركة الوطنية الفلسطينية وعلاقتها بمفهوم القاعدة الآمنة، دراسة هاني الحسن، أحد قادة "فتح"؛ إذ اعتبرها بداية مرحلة إنماء الذات للثورة الفلسطينية وإرساء قواعدها، ومرحلة الوقوف على الأرض أول مرة منذ عشرين عامًا، وبها تسلمت قيادة الثورة مدة سنتين التوجيه والسيطرة على الأحداث والتطورات في الشرق الأوسط، ينظر: هاني الحسن، "وقفة عند الذكرى الرابعة لمعركة الكرامة"، **شؤون فلسطينية**، العدد 8 (نيسان/ أبريل 1972)، ص 41 - 57.

8 فيما يتعلق بمسألة التعارض بين منطقي الثورة والدولة، أعتقد أنه من المهم الوقوف على موقف جمال عبد الناصر؛ إذ ذهب بعضهم إلى أنه كان على إلمام كامل بالفروق بين الثورة والدولة، وبين العربي والفلسطيني، وذلك استنادًا إلى دعمه المقاومة بعد العدوان، الذي تمثل في خطوات كثيرة اتخذها، بدأت في تموز/ يوليو 1967 بمطالبته ثلاثة من قادة فتح (ياسر عرفات وصلاح خلف وخالد الحسن) بإحراق الأرض تحت أقدام المحتلين الإسرائيليين، ودفاعه المعلن عن المقاومة الفلسطينية و"فتح"، مرورًا بتلقي مقاتلين فتحاويين تدريبات على عمليات القوات الخاصة، والحرب السرية في مصر اعتبارًا من حزيران/ يونيو 1968، ووصولاً إلى تسليم عبد الناصر بحق المقاومة في رفض قرار مجلس الأمن رقم 242 الذي قبلته حكومته، في أثناء افتتاحه المجلس الوطني الفلسطيني الخامس في القاهرة في شباط/ فبراير 1969. يُنظر: عبد القادر ياسين، **الحركة الوطنية الفلسطينية في القرن العشرين** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2022)، ص 344، 379؛ هنري لورانس، **مسألة فلسطين، مج 4، (1967-1982): غصن الزيتون وبندقية المقاتل، الكتاب السابع: 1967 - 1973 من حرب إلى عشية حرب**، ترجمة بشير السباعي (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2012)، ص 201 - 208.

تحت شعار "التثوير"، وخلق بنية مقاومة لا تلحظ وجود السلطة بداية أو ربما الانقلاب عليها وإسقاطها في مرحله تالية. ترافق كل ذلك مع جدالات فكرية حادة وانقسامات وخلافات، وكان لكل منهم وجهة نظر يدافع عنها ويعدها الأجدى، وإن كان أصحاب اتجاه ثورة في الداخل مع دعم لوجستي وتنظيمي من الخارج، يرون أنه لو جرت الاستجابة لوجهة نظرهم لتغّير مسار النضال الفلسطيني على نحو أكثر جدوى.

عمل كل اتجاه وفقًا لقناعاته، وأصبحوا منتشرين في المدن لتنتهي هذه المرحلة بخسارة "القاعدة الآمنة" في الأردن، التي لم تتحقق فعليًا، وخسارة إحدى أهم الجبهات مع فلسطين المحتلة. وتاليًا لم تنجح القيادات الفلسطينية في تكوين "القاعدة الثورية الآمنة" في لبنان، على الرغم من سنوح الفرصة في التجربتين: تجربة الأردن (1967–1971)، وتجربة لبنان (1972-1982). ولكون تلك القاعدة شرطًا ثوريًا استراتيجيًا، تأثّر تطبيق النظرية العسكرية المعتمدة سلبيًا. يطرح الكاتب تفسيرات عدة حول هذا الإخفاق، وسجل حوله ملاحظات (ص 120-123)، مؤكدًا أن ذلك لا يعني جلد الذات وإلقاء المسؤولية عما حدث على المقاومة وحدها، دون النظام العربي الرسمي أو الأنظمة المعنية، والمعطيات والسياقات الموضوعية التي أحاطت بالتجربة. وليس المقصود من المراجعة استلال السكاكين لمحاكمة التجربة، بل هي محاولة الإجابة عن أسئلة تُطرح دائمًا، على رأسها: "لماذا لم نحقق إنجازًا يوازي حجم التضحيات؟" (ص 124)، وهو السؤال الذي قد تفجر إجاباته المتعددة أسئلة عديدة.

ثالثًا: لهيب غزة: خصوصية التجربة العسكرية في القطاع

يأخذنا أبو حسنة إلى مجال مكاني للمقاومة المسلحة شديد التميز، وقلما يضاء حول تاريخها فيه ومسارها ونقاط تميزها وتأثيراتها. وقع هذا المجال داخل حدود شريط ساحلي ضيق وفقير وضعيف الموارد من أرض فلسطين، اكتظ بعد النكبة بعشرات الألوف من اللاجئين المحملة أحوالهم بكل أسباب المعاناة، لكنه دائمًا كان ذا تأثير بالغ في إنهاض الكفاح الفلسطيني؛ ذاك هو قطاع غزة.

اهتم الكاتب بالوقوف عند التجربة العسكرية الفلسطينية في قطاع غزة كونها لم تلق من البحث والدراسة ما تستحق. وعلى عظم تلك التجربة وتفاصيلها يمكننا أن نميز مرحلتين مهمتين في عمرها؛ الأولى في الخمسينيات، والثانية امتدت من أعقاب عدوان 1967 حتى السبعينيات. في الأولى شهد القطاع تجربة قتالية للفدائيين خلفت عظيم الأثر في أبنائه وأورثتهم خبرات شكلت مخزونًا بدا أثره في المرحلة الثانية، تلك التي كتب خلالها الغزّيون أحد أبرز فصول الكفاح بالسلاح.

شهدت غزة، التي كانت تحت الإدارة المصرية، منذ بداية الخمسينيات، محاولات إطلاق عمل مسلح منظم، وقد نجح فدائيوها في ذلك إلى الحد الذي أعاد الاعتبار إلى فكرة المقاومة المسلحة بعد إحباطات النكبة. في حين بدأ العمل المسلح انطلاقًا من القطاع يأخذ طابعًا أكثر كثافة وفاعلية وتنظيمًا مع إنشاء "الكتيبة 141" في نيسان/ أبريل 1955، تحت قيادة ضابط الاستخبارات المصرية، مصطفى حافظ، بقرار من القيادة المصرية بإطلاق العمل الفدائي وتأليف وحدات فدائية، تلبية لمطالب الغزيين بالسلاح والتدريب وإطلاق المقاومة لرد الاعتداءات الصهيونية المتواصلة على القطاع (ص 62). تمثل هذه الكتيبة وأنشطتها المجيدة عنوان ذلك الفصل المهم في تاريخ تجربة غزة القتالية النضالية، ومع ذلك تغمض عنها أعين البحث والدراسة[9].

تعد تجربة الوحدات الفدائية بغزة وعملياتها في الأراضي المحتلة في تلك الفترة على جانب كبير من الأهمية، وتستحق التسجيل الدقيق أولًا، ثم الفحص والتحليل على المستوى العسكري، وذلك من حيث نوعية العمليات،

9 من الدراسات النادرة عن تلك الكتيبة: يونس الكتري، **حلقة مفقودة من كفاح الشعب الفلسطيني: الكتيبة 141 فدائيون** (القاهرة: دار المستقبل العربي، 1987). وتستحق هذه الكتيبة مزيدًا من الفحص والتوثيق، وثمة مصدر مهم عنها لم يُكشف عنه بعد؛ إذ يحتوي أرشيف وزارة الحربية المصرية على ملف كامل يخص مصطفى حافظ وكتيبته، لكن غير مسموح الاطلاع عليه.

واتساع نطاقها، والأسلحة التي استخدمتها، والأهداف التي ركزت عليها (ص 63-65)، وما كبدته من خسائر اقتصادية وعسكرية وبشرية ومعنوية للعدو، حتى إنها مثلت الرد الأول على النكبة، ووضعت القضاء على النشاط الفدائي على رأس قائمة أهداف الصهاينة من وراء شن العدوان على غزة ومصر في تشرين الأول/ أكتوبر 1956، الذي أدى إلى احتلال غزة والثأر من الفدائيين وحاضنتهم الشعبية، ولتفكيك البنية الفدائية وتدمير تلك الحاضنة، عبر إشعارها بأنها تتحمل ثمنًا باهظًا بسبب ما يقوم به الفدائيون. فقد تصاعد النشاط الفدائي، وعكس الغزيون إرادة حية وناشطة في رفض أي تعاون أو قبول بالاحتلال؛ إذ كان ذلك النشاط قد خلف في نفوسهم وجميع أبناء الشعب الفلسطيني أثرًا عميقًا، وأذن بمغادرة حالة الإحباط، وأعاد الاعتبار لفكرة المقاومة المسلحة في مواجهة الاحتلال الصهيوني. ولعل الأنشطة التي قام بها الفدائيون من أفراد الكتيبة 141 بعد الاحتلال سيكون لها دورٌ في التأسيس لمراحل لاحقة من العمل الفلسطيني؛ إذ وجّهت تلك الكتيبة ضربات قاصمة للكيان الصهيوني جعلت الفلسطيني يرى إمكانية إلحاق الوجع بالإسرائيليين (ص 67-69).

رسم الغزيون ملامح ملحمة جديدة للمقاومة، كانت شديدة ومتميزة، محملين بخبرة الخمسينيات وتأثيراتها، ومنحت تجربة تلك الفترة التي امتدت إلى السبعينيات الفرادة والتميز، خاصيتين: التكيف مع البيئة، والالتحام بالجماهير. عند وقوع الاحتلال عام 1967 كان قطاع غزة يضم الآلاف من جنود جيش التحرير الفلسطيني، فمع تأسيس منظمه التحرير الفلسطينية ومن ثم جيش التحرير، انطلقت عملية تجنيد وتدريب كبيرة في القطاع، وقد مورست القرارات الخاصة بشأن إنشاء الجيش والتدريب الشعبي والتجنيد الإجباري بقدر عالٍ من الجدية على الصعيد العسكري؛ ما أدى الى عسكرة المجتمع؛ إذ زاد عدد أفراد جيش التحرير من كل الرتب عما كانوا عليه في السابق، وشكلوا هيكلًا يمكن له أن يتطور في المستقبل، وكذلك ازدادت الكفاءات العسكرية التي تملك العلم العسكري بين فلسطيني القطاع، والأهم أن التدريب العسكري قد شمل الأغلبية الساحقة من سكان القطاع. أضف إلى ذلك أن انتشار السلاح بكثافة أسهم في تميز المقاومة؛ إذ وزعت السلطات المصرية عشية حرب حزيران/ يونيو 1967 آلاف البنادق الخفيفة مع بعض الذخيرة على المواطنين في القطاع، ولم يقصّر هؤلاء في جمع كمية أخرى من البنادق التي خلفها الجنود في الميدان بعد الهزيمة، وصارت في أيدي المواطنين جاهزة للاستعمال الفوري. وقد كانت لعملية التعبئة والعسكرة تلك نتائج سياسية لم تقل أهميةً عن النتائج العسكرية، إذ أعطت صدقية كبيرة لموضوع الكيان الفلسطيني بالنسبة إلى المواطن العادي، وأضحى المعنى الحرفي للكيان هو السلاح والكفاح، وأن الكيان يصبح هزيلًا ضعيفًا غير جدير بثقة الشعب الفلسطيني والرأي العام العربي، إذا لم تكن الناحية العسكرية الفلسطينية بارزة فيه بروزًا قويًا (ص 125-126).

وتميزت التجربة الغزية في مقاومة الاحتلال بمساعي التغلب على عوائق التضاريس؛ فتضاريس القطاع المشكلة من سهل ساحل ضيق ومنبسط، على نحو شبه كامل، لا تمثل بيئة مناسبة لأي نشاط من أنشطة حرب العصابات، وفق قواعدها المعروفة والمتداولة، ومن ثم فإن الأعمال المجيدة التي قام بها فدائيو القطاع تستحق الوقوف عندها. وكان أهم عامل ساعدهم وعوضهم عن انكشاف الوضع التضاريسي العام، هو وجود حاضنة شعبية كبيرة، هيّأت لهم الظروف، وسهّلت لهم ما اتبعوه من أساليب تناسب طبيعة الأرض، ووفرت أماكن لاختباء الفدائيين والاهتمام بأمرهم.

انطلقت المقاومة في غزة وشقت طريقها بين وسط جماهيري حاضن ومساند، فإلى جانب التدريب والكميات الوفيرة من السلاح، لم تكتفِ الجماهير بالوقوف مع الفدائيين، بل أسهمت في عملهم بالدعم المادي، وتوفير الحماية والمأوى، وسعت إلى المشاركة والانخراط في أعمال المقاومة. ونظم رجالها عملية التغلغل بين الناس؛ حتى لا تنعزل الحركة المسلحة عن جماهيرها، ومن ثم تستبعد الأخيرة من حلبة الصراع. بهذا وجد العدو نفسه قد دخل إلى غابة من البشر في غزة، فهم مقاتلون أو مشاريع مقاتلين، بمعنى أن البيئة الاجتماعية قدمت مساعدة قيمة للفدائيين الذين يحمون عائلاتهم ومجتمعهم، وكانت الأغلبية ترى أنه من الواجب عليها أن تحتضن المقاتلين إن لم تُقاتل. وقد اعتبرت المصادر الصهيونية تلك الحاضنة الجماهيرية عنصرًا

مؤثرًا جدًا في تعزيز قوه الفدائيين في القطاع، وأن الحركة المسلحة اكتسبت قدرتها العسكرية لأنها أصبحت حركة شعبية؛ ما صعّب من كبح عمليات الفدائيين. وعمليًا لم تفلح كل وسائل الاحتلال في إيجاد شرخ جدي بين المقاومة وأهلها، على الرغم من إجراءات القمع الصهيوني الوحشي لاتهامهم بمساعده الفدائيين (ص 129-130)، وهذا أمر يستحق الوقوف أمامه طويلًا عند التعمق في قراءة تلك التجربة.

أما عن المدى الزمني لتجربة المقاومة في غزة، فقد بدأت بعد الاحتلال مباشرة وتصاعدت في الأعوام التالية، واستمرت مؤثرة إلى عام 1972، وعلى نحو أقل في العامين التاليين وصولًا إلى عام 1974. في حين تعد فترة الصعود الذهبي لها بين عامي 1968 و1970؛ إذ ارتبطت إلى حد بعيد بفترة صعود المقاومة عمومًا في تلك الفترة، في الضفة وعلى الجبهات الأردنية والسورية واللبنانية، وكذلك باشتعال حرب الاستنزاف على الجبهة المصرية، كما أنها استمرت بعد انحسار العمل على تلك الجبهات، أو تراجعه نسبيًا مع الغياب شبه الكامل للفاعلية على الجبهة الأردنية بعد عام 1970، وتصفية وجود المقاومة في الأردن في عام 1971.

كانت تجربة غزة، مثلها مثل سائر تجارب المقاومة الفلسطينية في مراحلها المختلفة لها ثغراتها وإشكالياتها، وحملت سلبيات التجارب الأخرى وأخطاءها في الضفة والأغوار وجنوب لبنان وسورية، وهو ما اجتهد الكاتب في توضيحه، على مستويات عدة؛ أهمها الأداء القتالي والتكتيكات التي اتبعها الفدائيون والمستوى التنظيمي أيضًا، إضافة إلى الأخطاء في عملية توظيف الحاضنة الجماهيرية، وانعكاس كل ذلك في تأثير المقاومة في القطاع (ص 135-144). وفي النهاية، طرح الكاتب سؤاله الذي ينهي به قراءة كل تجربة وهو: "لماذا لم تُقرأ في حينها؟"، ويُستخلص من درسها ما يُهتدى به في استكمال الطريق؛ طريق المقاومة والتحرير.

رابعًا: الأداء العسكري الفلسطيني: تقييم عام

وضع الكاتب تقييمه الإجمالي للأداء العسكري الفلسطيني في منطقة وسط بين تقييمَين، ذهب أحدهما نحو القول إن الكفاح المسلح الفلسطيني حقق أهدافه بنقل الشعب الفلسطيني من خانة "المنكر وجوده"، إلى طرف مفاوض على الطاولة مع من أراد نفيه ورفض الإقرار بوجوده، في حين ذهب الثاني إلى اعتبار التجربة العسكرية الفلسطينية سلسلة من الفشل فحسب. لكن أبو حسنة لا يرى هذا أو ذاك، بل إن الأداء الفلسطيني كان له أن يكون أفضل كثيرًا، وكان له أن يحقق جانبًا واسعًا من أهدافه، لكنه لم يفشل إطلاقًا. بناءً عليه، وضع ملاحظاته العامة التي سنعرضها فيما يأتي، إضافة إلى ما استخلصناه معه من سياق كل ما عرضه في البحث، مع الانتباه إلى أنه وقف في قراءة التجربة عند مدى زمني محدد هو عام 2005.

1. لم يكن العمل العسكري الفلسطيني طوال عقود، بفترات انتعاشه وهبوطه المتلاحقة، وبقوافل الشهداء التي تتابعت، وبعشرات الألوف من الخسائر البشرية والمادية، مجرد محاولة فاشلة طويلة الأمد، بل أعطى الكثير من المكاسب السياسية والمعنوية، كان أبرزها إعادة إحياء القضية الفلسطينية، وبعث الشخصية الوطنية، وإعطاء منظمة التحرير الفلسطينية مضمونها الكياني وتقديمها على المسرح السياسي.

2. تركز الوجود البشري الفلسطيني والوجود الاستيطاني اليهودي الصهيوني في منطقتي الشمال والوسط، ودارت أغلبية المواجهات في تلك المنطقتين اللتين لا تشملان تضاريس وعرة أو غابات كثيفة أو جبالًا وعرة تصلح للاختباء، وقد أخفقت محاولات استثمار وعورة بعض المناطق لجعلها أماكن اختباء أو قواعد انطلاق تستطيع أن تضمن عنصري الحماية وطرق الإمداد. فمنذ أواخر العشرينيات حاول بعض المجاهدين اللجوء إلى جبال صفد ولم تستمر التجربة طويلًا، وكذلك لم تستطع أحراش "يعبد" تأمين ملاذٍ مناسبٍ للشيخ عز الدين القسام وإخوانه، وفشلت في وقت لاحق تجربة القواعد الارتكازية في الضفة،

وأدى تطور الوسائط القتالية دوره في المرحلة الأخيرة، حين أحكم العدو سيطرته الجوية والميدانية على أرجاء فلسطين كافة. وفي مقابل ذلك، نجح المجاهدون، في مواجهات عدة دارت في المدن في مراحل تاريخية مختلفة، في الإفادة من ظروف الكثافة السكانية وتحقيق إنجازات جوهرية؛ إذ تمكنوا من النجاح في استثمار طبيعة الأرض لخوض مواجهات ألحقت خسائر كبيرة بالعدو، وهو ما يؤكد أن توافر الخطط والإعداد الجيد كفيلان بتحقيق أفضل النتائج.

3. انطلقت الثورة بعد النكبة من الداخل والخارج وحاولت توطيد أركانها في الداخل، وفي هذه المرحلة غلبت النظريات المستوردة على الدراسة الفعلية لطبيعة الأرض، واعتماد الأنماط المناسبة للعمل، وخوض المواجهة. وكانت إحدى الأفكار المسيطرة على الأداء محاولة تكرار تجربة 1936، عبر تثوير الجماهير الفلسطينية في الداخل وبناء قواعد الثورة وتعزيز المواجهات في الريف والمدن عبر القواعد الارتكازية، لكن التجربة لم تحقق نجاحًا. ثم اتخذت المقاومة شكلًا جديدًا في الانتفاضتين؛ إذ كان العمل مركزًا في الداخل هذه المرة، واعتُمد مزيج من الوسائط والأساليب في الأداء العسكري، والذي أنتج شكلًا مختلفًا إلى حد كبير عن كل ما سبقه. وفي هذه المرحلة دلّ تجدد تجربة "المطاردين" على غياب درس فعلي لطبيعة الجغرافيا التي يدور فيها الصراع، واستخلاص العبر من تجربة طويلة وغنية بالدروس، وكذلك من طبيعة التطور الذي لحق بوسائط القتال لذلك العدو، وخصوصًا ما يتعلق بالسيطرة الجوية، والتغلغل في أحشاء التجمعات الفلسطينية بوساطة العملاء، وبالقدرة على التحرك السريع.

4. في ارتباط وثيق بواقع الجغرافيا، يأتي فهم طبيعة الصراع وأهميته، الأمر الذي انعكس انعكاسًا مباشرًا على طرق خوضه. خلص الكاتب إلى أنه قد غاب، على نحو شبه دائم، فهم عميق ومركز لطبيعة الصراع الدائر في فلسطين، وسيطر فكر أراد دومًا أن يطرح تسويات وحلولًا وسطًا، حدث هذا قبل الثورات الفلسطينية المتعاقبة، وفي ثورة 1936 أحبطت الاستجابة لنداء الملوك والرؤساء قوة الاندفاع التي كانت تمتلكها الحركة الفلسطينية وقواها المقاتلة، وتأسيسًا على هيمنة منطق الحلول الوسط نشأت قوى مناهضة للثورة مثل فصائل السلام. أما في المرحلة الحديثة فقد بدا القتال في أغلب الوقت وكأنه استجرار لتحسين شرط الحل الوسط، وقد انعكس ذلك على الروح القتالية، وعلى شكل خوض القتال. وحتى في الانتفاضتين عندما انخرطت قوى واسعة في خوض القتال، ظل الحديث عن التسويات مسيطرًا، وجرى الالتفاف لإحباط منجزات كان يمكن التأسيس عليها لمتابعة العمل بروح هجومية تحدث تغييرًا ملموسًا على أرض الواقع. إن الصراع ذو طبيعة جذرية لا يقبل أنصاف الحلول، وليس للحق أن يتعايش مع الباطل، ولا سبيل إلا لدحره.

5. يرصد الكاتب في المراحل المختلفة شبه غياب عنصر المبادرة، وقيام الجانب الأكبر من الجهد القتالي الفلسطيني على كونه رد فعل، ولم يمتلك عنصر المبادرة إلا في أوقات قليلة، وحين امتلكها فإنه لم يحسن تطويرها. إن البطولات التي أبداها المقاتلون والمجاهدون الفلسطينيون منذ بدء الصراع توجب الانحناء لها، لكن في المقابل، وعدا بعض الحالات، فإن الروح الاقتحامية الهجومية التي تزلزل العدو وتزرع الرعب في أوصاله ظلت غائبة، وحين وقوعها فإنها لم تكن موضوعة ضمن خطة منهجية تصاعدية؛ أي تضمن الاستمرار، وإنما بدت مثل انعطافات في خط بياني متذبذب. فرض التصرف الغالب بمنطق رد الفعل دومًا تحركات بلا خطة، وأحيانًا بلا أهداف واضحة.

6. في الحديث عن اختيار الأهداف في الكفاح اليومي، تظهر مشكلة هيمنت على الأداء القتالي الفلسطيني؛ إذ ظلت هناك أهداف كثيرة يمكن تسميتها بالأهداف المهملة، بدءًا من عمليات التخريب البسيطة في البنى التحتية ولكن ذات الأثر المهم، وصولًا إلى المنشآت الحيوية وطرق إمداد العدو، التي

لا يُفهم لماذا ظلت على نحو شبه دائم بمنأى عن الاستهداف. ففي ظل صراع مفتوح وجذري، فإن كل ما يخص العدو مستهدف؛ بشرًا، مصنعًا، طريقًا، عربة، شجرة. إن آثار عمليات من نوع تخريب شبكات المياه والكهرباء وحرق المحاصيل قد تفوق كثيرًا الأثر الذي يحدثه اشتباك مسلح أو قتل جندي، وهذا لا يعني الامتناع عن بذل جهد في كل اتجاه، والسعي نحو خلق نوع من التكامل بين كل الوسائط والأشكال، وهو ما يجعل العدو مضطرًا إلى الحرب على جهات متعددة وكثيرة، ولا يعرف كيف يواجهها معًا. والتكامل يعني عدم الاستخفاف بأي نوع من الأنشطة من الاعتصامات وقطع الطرق إلى التخريب وصولًا إلى العمليات العسكرية المباشرة.

في النهاية، فإن إلقاء الضوء على الكفاح الفلسطيني المسلح ونقده، والوقوف على إنجازاته وإخفاقاته، ودروس سيرة المقاومة ومسيرتها، لا تهدف سوى إلى المعرفة في سبيل التحرير، فالصراع لا يزال مفتوحًا، وكذلك سجل المقاومة وتضحيات الشعب الفلسطيني، حتى بلوغ الغاية.

كان ذلك أهم ما جاء في كتاب نافذ أبو حسنة، الذي وافته المنية قبل أن يدرك لحظتنا هذه، فبعد قراءة هذا الكتاب، بما شمل من تقييم لمراحل تاريخية كثيرة ومهمة واستفادة منها، يبدو لنا أن المقاومة الفلسطينية المسلحة اليوم في مرحلة جد مختلفة اختلافًا نوعيًا، على مختلف الصعد، بعد إطلاق حركة "حماس" معركة "طوفان الأقصى"؛ إذ إننا أمام أداء قتالي واستراتيجية أكثر تطورًا وإتقانًا ووعيًا بإمكانات الذات والعدو. فقد امتلكت المقاومة عنصر المبادرة، واستطاعت أن توجه ضربة مفاجئة إلى الاحتلال لم توجعه وتكبده خسائر فحسب، بل ألحقت به هزيمة غير مسبوقة زلزلته وبثّت الرعب في أوصاله. كما جاءت تلك المعركة ضمن تخطيط استراتيجي وعملياتي محكم وتصاعدي، وواضح الأهداف، وقد تحقق فعليًا مبتغاها، وهو تحطيم الصورة النمطية لقوة كيان الاحتلال وتفوق قدراته، ووضع القضية الفلسطينية في صدارة اهتمام العالم.

تشف "طوفان الأقصى" بوضوح عن أن ثمة خبرة طويلة تراكمت لدى المقاومة الفلسطينية؛ ما كان وراء تميز صنيعها اليوم، لجهة التسليح والتدريب والقدرة الاستخباراتية والتقنية والوعي الدقيق بقدرات العدو العسكرية وممارساته وما اعتمدته من تكتيكات ناجحة، أصابت الاحتلال باختلال التوازن مما دفعه إلى شن عدوانه الوحشي على غزة. ويثبت تطور الأداء القتالي للمقاومة الفلسطينية يومًا بعد الآخر أن مسيرة قضية فلسطين ومسيرة مقاومتها تجاوزت الكثير من عقبات الماضي وعوائقه وإخفاقاته، وأن الفلسطينيين، شعبًا ومقاومة، قادرون على إدارة صراعهم مع العدو، وماضون في سبيل غايتهم وتحرير أرضهم.

المراجع

أحمد محمود، معين. **العمل الفدائي ومراحل حرب التحرير الشعبية**. بيروت: منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، 1969.

الأيوبي، الهيثم. "عشرة أعوام من عمر الكفاح المسلح الفلسطيني". **شؤون فلسطينية**. العددان 41 - 42 ([كانون الثاني]/ يناير–[شباط]/ فبراير 1975).

بشارة، عزمي. **أن تكون عربيًا في أيامنا**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2009.

التجربة العسكرية الفلسطينية: مراجعة نقدية لمسيرة التحرير الفلسطينية 1964 - 1994. مائدة مستديرة. بيروت: لجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية الفلسطينية، 1994.

الحسن، هاني. "وقفة عند الذكرى الرابعة لمعركة الكرامة". **شؤون فلسطينية**. العدد 8 (نيسان/ أبريل 1972).

الكتري، يونس. **حلقة مفقودة من كفاح الشعب الفلسطيني: الكتيبة 141 فدائيون**. القاهرة: دار المستقبل العربي، 1987.

لورانس، هنري. **مسألة فلسطين، مج 4، (1967-1982): غصن الزيتون وبندقية المقاتل، الكتاب السابع: 1967 - 1973 من حرب إلى عشية حرب**. ترجمة بشير السباعي. القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2012.

الموسوعة الفلسطينية. ج 5. دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية، 1984–1996.

ياسين، عبد القادر. **الحركة الوطنية الفلسطينية في القرن العشرين**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2022.

ياسين، عبد القادر وسميح شبيب وماجد الكيالي. "الكفاح المسلح الفلسطيني: التجربة والمحدودات (ندوة)". **شؤون فلسطينية**. العددان 244–245 (تموز/ يوليو–آب/ أغسطس 1993).